غذاء الفضل

في سير ذويهِ وفظائع مخالفيهِ

لما كانت معالجة الاخلاق الجليلة من اخصّ مفاخر الصحف الجليلة . وكان المقتطف قد صار لانتشارهِ خطيب الاصقاع أتيت بهذه المقالة انبّه بها الافكار الراقدة للجدّ في استئصال العوائد الفاسدة

ان النفس لتأنس بالاقتداء . وتبادر الى الاحتذاء . وقلّت نفسٌ تعاف الاتباع الى الابتداع . يدلك على ذلك ما ترى لهذا العهد من تهافت الناس على المتابعة في ازياء الملابس . وتكوين المنازل . والمشاكلة في المراكب والمشابهة في الاهرة والاثاث والخروج اثناء المكالمة العربية الى المراطنة بالاعجمية اما تفاخرًا واما استرسالاً مع هذه العادة المالطية الشوهاء فتصبح تلك المفردات الأعجمية بين الجمل العربية كالرقعة الرثّة في البرد القشيب

ولا يخفى عليك ان لكل جيلٍ ودولةٍ من العادات في الجدّ والأسي والمخاطبة والمكاتبة والسلام والوداع وازياء الثياب وهندسة الاسواق والدور شيئًا يعتورهُ الجيل والدولة حتى ان علماء الآثار قد يستدلّون حيث لا يجدون كتابة بهندسة الابنية على العصر الذي بُنيت فيهِ والدولة التي كانت متسلطةً وقتئذٍ . وكفى بهذا دليلاً على ان الجيل برمّتهِ يحذو حذوًا واحدًا ملبسًا ومطعمًا وبناء ومظهرًا وهو من اقوى البراهين واصرح الادلّة على استئناس النفس بالاتباع . ومن الادلّة الشائعة على ذلك اصطلاحنا الحديث في استقبال الكبراء بالقاء الخطب وانشاء القصائد فترى صحفنا طافحةً بنحو " ولما دخل الدار حضرة صاحب الدولة فلان او او سعادة قائم المقام او جناب المدير انبرى الخطباء والشعراء واحدًا إثر واحد يخطبون وينشدون ويثنون على مالهُ من الايادي البيضاء " . وتراها ايضًا حافلةً بشبه " وما استقرّ بغبطتهِ او سيادتهِ او حضرتهِ المقام حتى قدّمت لهُ القصائد والخطب وفي الختام خطب فيهم خطيبةً نفيسةً رصّعها بالدعاء لحضرة صاحب الخلافة العظمى ولوكلائهِ الفخام ورجال دولتهِ العظام فقابلها الحشد بتصدية الاستحسان " الى اشباه هذه مما عاد معروفًا عند مطالعي الجرائد كافّةً

وانما السرّ في ذلك كلهِ ان الاتباع مهيع بيّن يسهل على كلّ ان يسلكهُ واما الابتداع فعدولٌ عن المتعارف لا تنتجهُ الاّ قوة نفس وشهامة جنان . وما اقلّ ما يجود الزمان بمن تهديهِ لبابتهُ . وتدفعهُ شجاعتهُ الى ان يرفع لواء المناقضة وينشر بنود المخالفة لعادة سائدة في الناس مهما اخلّت بمصلحة الكافّة بل مهما جرّت عليهم الوبال اذ انهُ ينفرد حزبًا بنفسهِ ويصيح والقوم

كلُّهم إلباً واحداً عليهِ . ويكفيك هذا علَّةً لتلك العادات السيئة الزمن الطويل حتى في الامم التي استكمل فيها العمران وادركت الأمد الأقصى من الحضارة والتمدن فهذه الممالك الاوربية على ما بلغتهُ من التبحُّر في كل علم وصناعة تراها من وجهٍ آخر تذلّ العقل وتحتقر القوة الناطقة وترفع عليهِ القوَّة البهيمية وتحببها الى الشهوات البدنية . فمن ثمَّة توفرت في هاتيك الممالك دواعي ما يجحف بالآداب من العادات المرفوضة في اصول التهذيب الممنوعة في قواعد التثقيف التي انما اليها تنازع القوَّة البهيمية نزاع الصادي الى العذب الخصر . ولو أُوتيتُ من قوة الجنان ما يؤتى مصلحو عادات الأمم وحاسرو البراقع عن بصائر الشعوب لذكرت منها ما يندى لهُ جبين الأدب حياء مما وصل شيءٌ منهُ الى هذا القطر الشاميّ وضرب فيهِ خيامهُ . ذلك بما اقبل عليهِ بعض الوجهاء والاعيان ورحَّب بهِ جماعة من اغنياء الزمان وكسروا على رؤوس الاشهاد القيود المقيدة عن استقبالهِ . ولم يبقَ عندهم من قوانين الاجتماع الانسانيّ ما اذا رجعوا الى انفسهم وعرضوا عليهِ صنيعهم يتبينون الزيغ عن الجادَّة . وما وراء نكبة العقل هذه الاَّ نكبات أخر من وداع الثروة وزوال العافية وتناقص النسل وذهاب البركة . ولا يعيد الى القوَّة الناطقة ما لها من حق الايثار والتكريم الاَّ نفس تحارب من يخالف قويم مشربها وتناهض من يعارض صحيح مأربها ولا تبالي بانقباض كبير ، ولا تجفل بخسارة كثير بل تتحمل اشق المشاق ولا تتحمل مداراة من اعنسف سواء السبيل . ولا تزال بالثائرين حتى تكبح جماحهم وتخفض رؤوسهم وتسوقهم للاذعان الى سلطتها نادمين

واذا علمت ذلك أيقنت بالضرورة ان أنجع غذاء للنفوس القوية والعقول الزكية بل اصدق ما يهديها السبيل الى استئصال الأوهام ومحو السيئ من العادات وبثّها عزيمة تكفل لها الظفر بمن يناصبها الحرب الزبون انما هو الائتمام بعظماء الرجال الذين خلعوا نير العادات المجحفة بالراحة المخلَّة بنظام العافية ونسخوا حنادس الجهل بتقريب أُولي العلم واقتراح التآليف النافعة عليهم وغمرهم بالاموال الطائلة ليتهيأ لهم ان يتوفروا على تلك الاشغال العقلية ويحكموها غاية الاحكام ويخرجوها وافيةً بالمرام جاعلةً المقصود على طرف الثمام

فمن هنالك حرص الناس على تدوين تراجم العلماء وكتابة سيَر العظماء والكبراء من اصحاب الحلّ والعقد وذوي الشأن في الارض لتكون ذكرى للخالين ومنهضاً لهمم الحاضرين والآتين ومنتجعاً للخلائق الكريمة ومستزاداً للطبائع السليمة . وما اشبه سيَر المشاهير بالتربة التي يستخلص منها كل نجم وشجر ما يساوق طبعهُ ويوافق جوهرهُ فمن تهجم بهِ نفسهُ على الاختراع يكثر من مطالعة قصص المخترعين ويسوم نفسهُ الصبر على مزاولة العمل ويدفعها لتحمل العناء

فتتجرع كؤوسهُ المرَّة واثقةً بأن من وراء ذلك حلاوة الفخر ولذَّة الانتظام في عداد المخترعين الذين أوجدوا في الدنيا ما لم يكن موجودًا وتبوأوا مقام مجدٍ لم تبلغهُ همم من عداهم . ومن يكثر من تصفُّح تراجم من اشتهروا بالاخلاص والمثابرة على العمل وتلقي مشاقهِ وتذليل صعابهِ وتمهيد عقباتهِ تمنى فيهِ تلك الخصلة الشريفة . وتبسق فيهِ على هاتيك المطالعة اغصان تلك الطبيعة الكريمة فيصير من السهل عليهِ ان يشرك في عملهِ من يستعين عليهِ بمالهِ ورأيهِ ممن يصير واياهُ شخصًا واحدًا اذ يرتفع من بينهما الحسد والطمع حتى لا يخطر ببال الواحد منهما ان يؤثر نفسهُ على شريكهِ بمالٍ او جاهٍ فيكونان واحدًا مشربًا واثنين عملاً وسعيًا وجدًّا . فينفتح لهما من ابواب الكسب واسباب المجد ما كان يتعذَّر فتحهُ على كلٍّ منهما لو انفرد ورحم الله من قال "القوة بالاتحاد" وتغمَّد بالرضوان الشاعر القائل

كونوا جميعًا يا بنيَّ اذا اعترى خطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادا
تأبى القداحُ اذا اجتمعنَ تكسُّرًا واذا افترقنَ تكسرت أفرادا

ومن صبت نفسهُ الى تبوُّء منابر الخطابة كانت قراءة تراجم الخطباء نورًا يهديهِ سواء السبيل الى احكام هذه الصناعة التي تصل بالناس الى أمد لا يصل اليهِ السيف فيقرأ ترجمة الامام علي بن ابي طالب والحجَّاج بن يوسف ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم من اكابر خطباء العرب وترجمة هوميروس اليوناني وشيشرون الروماني وبوسيه وفنيلون من فحول خطباء الافرنج فتشتدَّ عزيمتهُ على قطع تلك العقبة الكؤود في طريق من يهوى شرف الوقوف في جمع كبير من الخلق يدفعهم بكلامهِ الى ما يريد فكأنهُ قائد ويردهم عما لا يريد وكأنهم جنود يذهبون الى حيث يذهب فيقدمون ويحجمون وفق اشارتهِ

واما من طُبع على تحرير النفس من عبوديَّة العادات واطلاقها من سجون التقليدات فأخبار من أبطلوا العادات الضائرة وكسروا قيودها الثقيلة وذكر ما لقوا من المقاومة دون استئصالها تهوِّن على النفس الابي النهوض على العادات المتملكة في طباع اهل زمانهِ وتمزج ما يجد من المرارة في مناهضتها بحلاوة الامل في تخليص الناس من رقِّها فلا يفتأ ينازلها ويقاتلها حتى يلد التجدُّد لهُ انصارًا فيجعلها بمالأتهم أثرًا بعد عين

فهذه النارجيلة كم اهلكت من مالٍ وأحدثت من داء وأدخلت في عبودية فلو ان زيدًا تصدَّى لجمع ما انفقتهُ وما تنفقهُ سورية وحدها في سبيل النارجيلة لرأى امام عينيهِ جبل ذهب . ولو ان عمرًا عُني بعدِّ من مات بسبب النارجيلة مصدورًا لتمثل هلكاها جمعًا كثيفًا . وأما أنها أدخلت في العبودية فهؤلاء محتكروا التنباك لا يأمرون في تسعيرهِ الاَّ اوامر الطمع

فيرفعون سعرهُ و يغلون ثمنهُ كما يشاؤون حتى اصبح التنباك رطل بتسعين غرشاً وما من داعية لهذا الغلاء الذي دخل في باب الغلوّ الاَّ طمع المحتكرين . فلو أن آفة سماوية ذهبت بنصف حاصلات التنباك ما تأدّى حبُّ الربح باصحابهِ وتجّارهِ ان يبيعوهُ رطلاً بتسعين غرشاً . وكذا لو تضاعف عدد المتسلين بالنارجيلة اللاثمين أفواه تلك الافاعي الفارغة ما غلا التنباك هذا الغلاء ولا انتهى ثمنهُ الى هذا الحدّ البعيد حتى عاد ذوو المال الجمّ والدخل المضارع اليم يئنون من هذا الغلاء بل يتأوهون من هذا البلاء . و يتبرّمون بهذا الرقّ بل يتألمون منهُ . على انهُ انما انجرّ اليهم بما تعوّدوهُ من لثم أفواه تلك الافاعي . فهل من سلطة تجور على الانسان وتسومهُ ذلّ العبودية اشدّ من سلطة العادة السيئة التي تمكّنت منهُ بل التي يبلغ من جهلهِ بمصلحتهِ ان يجعلها بقوة الاستمرار من مقوّمات وجودهِ او خاصّات كيانهِ فأين المنادون بالحريّة بل أين دعاتها والمفاخرون بها وما بالهم لا يزمعون الانتصار لها ولا تأخذهم الأَنفة للذود عن حياضها . اليس في وسعهم ان يهجروا النارجيلة يدَ الدهر فيتخلصوا من تكاليفها ومشاقها وينجوا من آفاتها وويلاتها

ليت شعري من ذا الذي يلزمهم بها او يكرههم عليها وكأني اسمع لسان أُولي النارجيلة وانا اكتب هذا السؤال يقول مجاوباً انما تكرهنا عليها يا صاح سلطة قاهرة وقوة قاسرة بسلطة تذلّ لها الجبابرة . وتعنو لها الاكاسرة . هي سلطة العادة وقوّتها وان الصعلوك منّا ليعد نفسهُ ملكاً عزيزاً وقد تناول بيدهِ تلك الافعى واخذ يقبل فاها عقب القهوة معتقداً ان في يده صولجاناً . وكم من فقيرهِ تقول " اقعد بلا اكل ولا اقعد بلا اركيلة " وكم من مصدور يقول " الموت ولا فراق الزبيج " فان كان في نيتك حمل الناس على هجر تلك العادة الحسناء الجامعة بين النار والماء فكانما قد سمت نفسك ان تجفف البحر او تكسف الشمس . واين قوّتك مما تحاول ولعلّ الذي جرّأك على ذلك انك لم تذق لذّة النارجيلة التي لا احلى منها عند الصباح والاصيل وبعد الطعام ولا سيما في البساتين عند نفحة الربيع وهبوب النسيم العليل وما أحراك ان تتذكّر قول الشاعر

دع عنك تعنيفي وذُق طعم الهوى فاذا عشقتَ فبعد ذلك عنفِ

نعم اني لواثق كما علمتَ من كلامي بأن ذوي النارجيلة هم فوق ما تقول ألا وقد ملكتهم قوة العادة . وكفّت عيون بصائرهم واصبحوا عمياناً لا يهتدون طريق مصلحتهم . ولا يفرّقون بين النافع والضارّ لكن حسن النظر في سوء المصير قد رفع الغشاوة عن بصائر بعض من مشاهير المولعين كانوا بالنارجيلة ففطموا انفسهم عنها واستعاضوا من الهزال سمناً ومن الشحوب نضارةً

فقد تمنع الكهول منهم بعد مقاطعة النارجيلة من العافية ونضارة الصحة بما لم يتمتعوا به في شبابهم. ومن الجدير بالذكر في هذا المقام ترفُّع الشواب من عذارى ومتزوجات عن الخضوع لهذه العادة الضارَّة. واحقهن بالذكر وجيهة بيروتية أوصلتها قوة النفس الى ان حررت بيتها من عبودية النارجيلة فأخذ بوجهاء الناس ان يتفقوا ويحرروا انفسهم وبيوتهم من هذا الرق فيتبعهم العوام وتستريح الآذان حينئذٍ من اصوات الشكوى من قساوة المحتكرين وليدعوهم يرفعون سعر التنباك ما شاؤوا ولسان الحال ينشدهم "ونراه ارخص ما يكون اذا غلا" اقول وما حصول هذا بالامر المستحيل وان كان دون الوصول اليه مجاهدة الطباع الخاضعة لسلطة العادة. فوربك لو لم يكن بازاء الصدود عن النارجيلة والسيكارة الا لذة التخلص من استبداد المحتكرين لكفى به كفيلاً بالمبادرة الى اتفاق الخواص والعوام على تركها والاعتياض عنها. هذا وليعلم من يقدمون على استئصال هذه العادة ان اقلام الاخباريين والمؤرخين تنشر الثناء عليهم وتبث مدائحهم وتخلد ذكرهم حتى يظفروا بمجد اعاظم الرجال احياء واموانا

سعيد الخوري الشرتوني

عمران دمشق

« معابدها والجامع الاموي »

يرى المتفلسف في عمران المشرق ان اهله قلما يحفلون بتنميق المباني العامة وتزويقها الا ما كان منها تحت اسم الدين كالمعابد والمساجد والتكايا والزوايا وان تكن الديانة الاسلامية مثلاً لا تجيز الزخارف ولا تبيح اقامة مساجد تشغل ذهن الداخل اليها عن العبادة الخفية التي يُراد بها حضور القلب والخضوع والخشوع ولذا عُدَّ من محدثات البدع رواء صنعة بناء المساجد والاسراف في الانفاق عليها وتعدُّدها لغير حاجة ماسة. فقد كان في المدينة صدر الاسلام مسجد جامع واحد فلو فُرض ان دمشق مع كثرة سكانها وما يجيء اليها كل جمعة من سكان القرى يزيد عشرة اضعاف سكان المدينة كان الاحرى ان يكتفى بعشرة مساجد جامعة ولكن هي الاسماء عليها يتهالك الاقوام حرصين وفيها يتنافس البشر غير مأمورين

ومن ثم لا تسل عن اهل الاديان اذا خرب لهم مسجد او حرقت زاوية فقد تقوم قيامتهم كانما تقوَّض الدين برمته او أُخذ الملك بامته فيتسابق خاصتهم قبل عامتهم الى إعادة ما دثر